(٤)

عرض لتاريخ حيفا حتى تاريخ الحرب العالمية الأولى

الدكتورة خيرية قاسمية

أ ـ مقدمة :

تقع مدينة حيفا على خط عرض 39 ـ 532 وخط 535 شرقي غرينتش على الساحل الجنوبي لخليج عكا ، لاصقة بجبل الكرمل (2) ، الذي يمتد رأسه الشهير نحو البحر بانحدار متدرج . وموقع المدينة موغل في القدم ، وتميز عبر العصور التاريخية بسهولة تحصينه وصلاحه للرسو . وبكونه بوابة الاراضي الداخلية الخصبة ، لان طرقا عديدة تفضي اليه .

وقد اختلفت الروايات حول تحديد موقع المدينة التاريخية ، وحول اشتقاق الاسم (3) ، واكثر

---

(1) مادة حيفا في الموسوعة الاسلامية : Hayfa, Vol III, pp. 324u6.

(2) الاسم يعني الكرمة ، وهو يرمز بذلك للخصب .

Dunning, To-Day in Palestine, LONDON 1907, p. 158.

(3) من العلماء الذين دققوا في تحديد موقع المدينة واسمائها بعض العاملين في صندوق استكشاف فلسطين .

The Committee of the Palestine Exploration Fund

وهو جمعية تاسست في انجلترا /1865/ بهدف دراسة الاراضي المقدسة علميا وتاريخيا وكان الاهتمام السياسي الاستراتيجي بالمنطقة احد الدوافع الرئيسية لانشائها . وانظر الدراسة المقدمة الى المؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام في عمان نيسان /1980/ بعنوان : خيرية قاسمية صندوق استكشاف فلسطين : نشاطاته 1865 ـ 1915 .

الروايات دقة هي ان (حيفا العتيقة) القريبة من رأس الجبل على بعد /2/كلم من حيفا الحالية جنوبا (عند راس الكروم) هي الموقع الذي ظل مأهولا منذ فجر التاريخ حتى عام / 1761/ (4) ، اما اسمها فالاغلب انه مشتق من الجذر العربي (الحِيف) أو (الحيْف) وهو حد الحجر الجارح ، وقيل انها دعيت بذلك لوقوعها على شاطىء البحر عند الصخور الكبيرة (5) .

وتنظر الاديان الثلاثة للمدينة نظرة تقدير لما تحويه من آثار وما ترتبط به من ذكريات دينية وتاريخية .

ب ـ حيفا في التاريخ القديم :

عثر الباحثون في جوانب الكرمل (6) على نماذج من المستحاثات معاصرة للفترة الايوسونية « Eusone » ، وبعضها تعود الى فترة اكثر قدما (بعض الاصداف المتحجرة وقد أهلت منطقة جبل الكرمل منذ العصر الحجري القديم واكتشفت في مغاور الجبل وكهوفه بقايا هياكل بشرية ، كما عثر على قبور بجانب طريق الناصر (نفي شعنان) وفي مغارة الواد قرب عتليت ، تعود الى العصر الحجري القديم والوسيط (7) .

اما في عصور التاريخ ، فأول من سكن منطقة حيفا هم الكنعانيون (الفينيقيون) الذين عمروها وبنوا المدن والقرى ومنها حيفا ، وكانت احدى مدنهم الساحلية الهامة (8) . وبقي من البلدة الكنعانية (الفينيقية) مدافن قديمة منحوتة في الصخور ونواويس حجرية على المنحدرات القريبة من سفح الكرمل . (9)

---

(4) كان بناء حيفا الجديدة قد بدأ في حكم الشيخ ظاهر العمر كما سيرد فيما بعد .

(5) الاب جوزيف الكرملي ، حيفا ، ماضيها ومستقبلها ، مجلة المشرق بيروت مجلد 7 عدد 1 كانون 1904 ص 78 ـ ص 73

وسيرد المقال بعد ذلك باسم الكرملي .

(6) حدث ذلك اثناء عملية بناء المستوطنة الالمانية :

Conder's Reports : The survey of Palestine, Haifa, Jan 20, 1873.

Palestine Exploration Fund, Quarterly Statement, 1873, pp, 52-53

وسيرد اسم المجلة بعد ذلك تحت : P. E. F.

(7) مصطفى مراد الدباغ ، بلادنا فلسطين ، جزء 7 قسم ثاني ، في ديار الجليل ، جند الاردن ، قضاء حيفا ص 452 ـ 699 ، بيروت 1974

سيرد الكتاب بعد ذلك باسم الدباغ .

(8) الكرملي : Drake's Reports, Haifa Jan. 27, 1873.

(9) P. E. F. 1873, pp. 62-64.

وعلى شواطىء حيفا نشبت معركة بين المصريين (في عهد رمسيس) 1191 ق . م والفلسطينيين (القادمين من بحر ايجة) الذين امتلكوا الساحل من جنوب الكرمل حتى غزة (10) .

ومنذ أوائل القرن الثاني عشر واوائل القرن العاشر ق م وقع جزء من ارض فلسطين الداخلية بيد العبرانيين وقد حصى يشوع بن نون (سبط منسا) بالساحل شمال الكرمل . ومع ذلك يستطيع العبرانيون مد نفوذهم الفعلي نحو الساحل الشمالي وظلت حيفا احدى الموانىء الفينيقية المزدهرة (11) ، ولم يرد ذكر لحيفا في التوراة ، ولكنها وردت في التلمود (العبرانية المستحدثة) على صورة حيفا ( ) ومعناها الفرضة والمرفأ (12) . ومن هذه الفترة اكتشفت عدة نواويس من الحجارة الرملية المطلية بالملاط . (13)

وتوالت على المدينة بعد ذلك سائر الدول والامم التي تغلبت على فلسطين : الأشوريون ، الكلدانيون ، الفرس ، واليونان والسلوقيون ، فزهت وخربت مرارا (14) .

ودخلت حيفا في حكم الرومان بعد احتلال بمبيوس لفلسطين (في القرن الاول قبل الميلاد) . وكانت خرابا وما لبثت ان ازدهرت .

قد دعاها الكتاب اليونان والرومان باسم ' Sycaminum - (15) و ' sycamine » باليونانية شجرة التوت ، ولعلها دعيت كذلك لكثرة التوت بها (16) .

واحيانا سموها « porphyrion » (17) والمشتق من كلمة « Porphyra» اليونانية بمعنى الارجوان ، وقد يعني الاسم صدف الارجوان . ويطابق هذا الاسم « Murex» اليونانية او « Chilzon » (اي حلزون) العربية السامية وهو نوع من الرخويات البحرية التي تنتج صبغا ارجوانيا وهي كثيرة في سواحل فينيقية من لحف الكرمل جنوبا الى ما زراء صيدا شمالا (18) .

---

10) الكرملي :

(11 Dunning, op. cit, p. 157

(12) الكرملي :

(13) اكتشفت في موقع غربي المستوطنة الالمانية في حديقة مهملة مغطاة برمال لينة .

Shumacher, Recent Discoveries, Haifaù Nov. 1887.
P. E. F., 1888, p. 104.

(14) الكرملي :

(15) هكذا ذكرها سطرابون في جغرافيته وكانت خرابا وذكرها بلينوس الطبيعي ويوسيفوس المؤرخ اليهودي .

(16) حتى نهاية القرن التاسع عشر ظل نوع قديم من شجر التوت موجودا داخل خرائب حيفا العتيقة قرب دير الراهبات .

Conder, Sycaminon, Hepha, Porphhyreon, and Chilzon,
P. E. F., 1877, p. 188.

(17) وهي غير البلدة شمال صيدا

Cliphant, L. Round Mount Carmel, Haifa, 24th Nov. 1885.
P. E. F. 1885, p. 25.

(18) الكرملي :

وقد اختلفت الباحثون فيما بعد (19) حول تطابق هذين الاسمين على موقع المدينة القديمة ، وقد ميزوا بين /اثار عدة مدن متفاوتة تتوضع على ساحل خليج عكا ويحدث التداخل في تحديد مواقعها وفي تسمياتها : الاولى هي (حيفا العتيقة) اي الموقع القديم للمدينة الكنعانية التي تتوضع على الجانب الشرقي من اللسان الارضي الممتد شمالا من الكرمل .

والثانية « Sycaminum » التي تقع تحت موقع يسمى تل السمك وهو تل بارز يقع على الساحل غربي حيفا العتيقة وجنوب راس الكرمل . (20) . ويشرف على الطريق الساحلي ، وربما سمي كذلك نظرا للكميات الهائلة من الاصداف البحرية حول قاعدته ، او تحريف من الاسم اليوناني « Sycaminum » الى اسم عربي او من الاسم « Shikma » بمعنى الجميز (21) .

والثالثة هي « Porphyreon » التي يجزم بعضهم انها لا تطابق موقع حيفا وانما تشير الى مدينة شمالي صيدا (على بعد 8 اميال منها) (22) ، بينما يقول الآخرون انها ربما تطابق موقع مدينة اخرى باسم « Chilzon » التي تعنني باليونانية « Murex » وتقابل (حلزون) العربية . وآثار هذه المدينة متميزة عن آثار حيفا العتيقة وقد تطابق وادي الحلزون في منطقة حيفا (23) .

وقد وجدت عدة اثار من العصر الروماني في مواقع متعددة منها بعض معاصر الخمر على جبل الكرمل ، (24) كما عثر في حيفا العتيقة (على عمق 5 اقدام) على بقايا حمام روماني صغير مؤلف من أرضية جميلة من الموزاييك الابيض المثبت بالملاط الجيد ، وعلى حوض محفور في الصخر (4 قدم مربع بعمق 8 بوصات) تلاصقه قناتان محفورتان في الصخر الاولى تتجه غربا ، والثانية نحو الجنوب الغربي وتكسو الحوض والاقنية طبقة من الملاط المخلوط بالآجر الاحمر . (25)

وقد عثر بين حدائق (حيفا العتيقة) على ارضيات مرصوفة بالفسيفساء وحجارة منحوتة وقطع نقدية ذهبية واساسات ابنية ، وآثار ميناء صغير (26) ، بجانب الطريق العمومي . وبجانب تل السمك موقع آخر اسمه Shigmona ـ شيقومونا ـ هو تحريف Shikma اليونانية بمعنى (الجميز) ـ يحتوي على جدار حظيرة ونحت في الصخور في الشرق والجنوب ومدافن منقورة في الصخر والى الجنوب احواض معصرة خمر ، ارضها مرصوفة بالفسيفساء (27) .

وقد ارتبطت مدينة حيفا بعدة مناسبات واحداث دينية ، فيقال ان النبيين الياس واليسع علما تلاميذهما الديانة الحقيقية في المكان الذي اصبح يطلق عليه اسم (الخضر) (قرب الفناربين تل السمك وراس

---

(19) وهم العلماء العاملون في صندوق الاستكشاف ، كوندر ، شوماخر ، اوليفانت

(20) Oliphant, Op. citù p. 26.

(21) الدباغ ص 558

(22) Conder, Sycaminon, hepha, etc., Cp. cit, p. 188

(23) Ibid, p. 190

(24) Shumacher, Recent Discoveries, 1887.

(25) Ibid, p. 34.

(26) Drake's Reports, Jan. 27, 1873, Ibid, p. 65.

(27) الدباغ ، ص 558 .

الكروم) (28) وان النبي الياس انتصر على اعدائه الوثنيين من اليهود فوق قمة الكرمل (اخذ بعضهم يدعونه احيانا باسم جبل مار الياس) (29) ، ويذكر الانجيل ان السيد المسيح وطىء ارض حيفا وباركها بمروره في طريقه مع السيدة مريم العذراء من مصر الى الناصرة (30) . وحفل جبل الكرمل منذ ظهور المسيحية بالنساك والموحدين (31) .

ج) حيفا بعد الفتح العربي الاسلامي :

يبدو انه لم يكن لحيفا اهمية تذكر خلال الفتح العربي الاسلامي لبلاد الشام ، فلم يرد اسمها في مصادر الفتح ، ومن المؤكد انها صارت الى العرب بعد تسليم قيسارية لمعاوية في 19 هـ/640 م . ومن القبائل العربية التي نزلت فلسطين بعد الفتح واستقرت في حيفا واطرافها قبيلة جذام بني عامر بني لام (من العرب القحطانية) وبني مخزوم القرشية (32) .

واقدم ذكر للمدينة في المصادر الاسلامية جاء في القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) ذكرها الرحالة ناصر خسرو (ت 452 هـ/1060 م) في سفرنامة بقوله : » ثم غادرتها (اي عكة ، الى قرية تسمى حيفا في طريق به كثير من الرمل الذي يستخدمه صياغ العجم والمسمى بالرمل المكي . وحيفا مشيدة على البحر وبها نخل واشجار كثيرة . وهناك عمال يصنعون السفن البحرية المسماة بالجودى » (33) .

ولا شك ان مدينة عكا كانت تبز حيفا بعد الفتح العربي ولا يعني هذا اهمال الاخيرة ، فقد اخذ العرب بتحصينها ، ونظروا الى جبل الكرمل نظرة تقدير واطلقوا عليه اسم جبل مار الياس ، لما شهده الموقع من حياة النبي الياس وعمله ، واقيم مسجد على المكان المسمى (الخضر) او مدرسة الانبياء . وربما تعود آثار بلدة temmaneh و Tinany شرقي تل السمك ، الى فترة اسلامية مبكرة ، وقد عثر قرب جدارها الشرقي على قطعة رخام منقوش عليها بعض الحروف العربية القديمة قرىء بينها كلمة « الله » (34) .

د ـ حيفا خلال حروب الفرنجه :

لما قدم الفرنجة الى الاراضي المقدسة 494 هـ/1099 م مروا قرب اسوار عكا وحيفا في طريقهم الى بيت المقدس ملتزمين الساحل ، وبعد استيلاء الفرنجة على بيت المقدس ظلت حيفا تابعة للدولة الفاطمية ، وبها حامية صغيرة في برجها الرئيسي ، ولم يتمكن الفرنجة من احتلالها الا بعد حصار خمسة عشر يوما بمساعدة اسطول بندقي ، وسقطت في 25 تموز 1100 م وهرب الى عكا وقيسارية من استطاع

---

(28) المصدر نفسه .

(29) الاصحاح 18 من سفر الملوك الاول من العهد القديم .

(30) الكرملي ، كانت الطريق الساحلية الرومانية تمر من حيفا العتيقة وتقطع المقام المعروف بالخضر وتمر (بالزورة) وتتبع تقريبا شاطىء البحر امام باب الكنيسة اللاتينية .

(31) منهم القديس يعقوب ناسك الكرمل .

(32) الدباغ ، ص 484

(33) ناصر خسرو ، سفر نامة ، /437 ـ 444 هـ/ ، ترجمة الخشاب ، القاهرة /1945/ ، ص (18) .

(34) Oliphant, Round Mount Carmel, Ibid, p. 26.

النجاة وقتل الباقي . وقد جعلها غود فروا بيونيون تحت امارة تنكريد مع طبرية وبلاد الجليل (35) . والى حيفا يشير ياقوت الحموي بقوله انها « حصن على ساحل بحر الشام قرب يافاولم يزل في ايدي المسلمين الى ان تغلب عليه (كندفورى) الذي ملك القدس في 494 ه (36) .

واصبحت حيفا منفذا بحريا لأمارة الجليل الصليبية ، واطلق عليها في تلك الفترة اسم « Cayphas » (واشتق منها اسم Caiffa الفرنجية الحديثة) . وللصليبين آراء غريبة حول اشتقاق الاسم ، فيعزو بعضهم بناءها الى القس الاكبر 'Caiphas » الصدوقي ، وسميت نسبة اليه ، وآخرون يفترضون ان لاسمها علاقة بكلمة 'Cephas » اشارة الى وجود الحجارة في الموقع (37) ، وقد اطلق الفرنجة عليها احيانا اسم «PorphyreOn » واحيانا اسم «Sycaminum » رغم عدم تطابق الاسمين على موقع المدينة (38) . كما اشاروا في بعض الاحيان الى موقع شرقي حيفا عند نهر المقطع باسم «Palmarea » (اي مدينة النخيل) نسبة لوجود اشجار النخيل (39) .

وقد ورد وصف المدينة بعد استيلاء الفرنجة عليها في روايات الحجاج والرحالة المسيحيين الذين قدموا فلسطين (40) واشار الحاخام بنيامين من طليطلة عام /1163/ م الى مدينة Kaiffa » في رحلاته ، والى ان جانبا من هذه المدينة يتوضع على الساحل في حين يشرف جبل الكرمل على الجانب الاخر . وانه قرب قمة الجبل يوجد كهف النبي الياس وقد بني المسيحيون كنيسة قرب الموقع وسموه القديس الياس (41) . وربما الى الفترة الصليبية يعود كشف عمود غرانيتي له تاج مرمري . وقد يكون احد اعمدة كنيسة « القبر المقدس » التي تشير اليها الادبيات الصليبية (42) .

والى الفترة الصليبية ايضا تعود بقايا القلعة التي بناها الفرنجة في جنوب المدينة عند (خربة رشميا) غرب نفي شنعان . وتحتوي على انقاض بناء مستطيل فيه برج مدافن منقورة في الصخر وصهاريج (43) .

ومع ان الصليبين قد جعلوا من عكا ميناءهم الرئيسي (44) ، الا ان وصف الجغرافي العربي الشريف

---

(35) سعيد عبد الفتاح عاشور ، الحركة الصليبية ، القاهرة /1963/ ، ج 1 275

(36) شهاب الدين ابي عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي معجم البلدان ، مجلد 22 ص 381 ، طبع بيروت /1956/ .

(37) Dowling, A., Town of Haifa. P.E.F. 1914, p. 184.

(38) Condor, Sycaminon, Hepha, etc.... Ibid, pp, 187-190

(39) Shumacher, Recent Discoveries, 1888. P.E.F., 1888, p. 139.

(40) اول حاج هو تاجر انجلو سكسوني 'Saewulf » قدم عام /1102/ ، كما ان اول حاج روسي للاراضي المقدسة اسمه دانيال قدم 1107/1106

Dowling, op.cit, p. 187.

(41) Wright, Th., ed., Early Travelsin Palestine. republished, London 1968, p. 81.

(42) تم اكتشافه اثناء حفر اساس بيت جديد كان سيقام على بناء قديم مهدم داخل المدينة الحديثة .

Shumacher, P.E.F. 1888, Op. cit, p. 138.

(43) الدباغ ، ص (558)

(44) Dunning, op, cit, p. 160.

الادريسي (توفي 560 ه/1160 م) لمدينة حيفا يشير الى اهمية حيفا ايضا تحت حكم الفرنجة فيقول « ومن قيسارية الى مدينة حيفا على الساحل يومان وحيفا تحت طرف الكرمل وهو طرف خارج في البحر وبه مرسى لارساء الاساطيل وغيرها . ومدينة حيفا هي فرضة لطبرية وبينهما ثلاث مراحل خفاف (45) .

وقد ظلت حيفا بيد الفرنجة حتى عام 583 ه /1187 م فعادت لاصحابها بعد انتصار صلاح الدين في حطين وخضوع عكا في 12 تموز وسقوط المدن الصغيرة على الساحل جنوبها . ويشير ياقوت الى ان حصن حيفا بقي في ايدي الفرنجة « الى ان فتحه صلاح الدين يوسف بن ايوب في 573 ه وخربه » (46) . ويذكر استرجاع حيفا العماد الاصفهاني محمد بن صفي الدين (ت 597 ه /1201 م) في كتابة « الفتح القسي في الفتح القدسي » وانها استسلمت الى بدر الدين دلدرم وغرس الدين قليج بعد فتحهم قيسارية (47) .

ولم تمكث حيفا طويلا بيد المسلمين فقد استرجعها الفرنجة ثانية (119 م مع عكا وصيدا . ولم يكن صلاح الدين قد ترك للصليبيين فيها شيئا من اسوارها وحصونها . وقد عمل الصليبيون على اعادة بنائها وشن العرب المسلمون هجماتهم على معسكر ريتشارد قلب الاسد عند مصب نهر المقطع شرق حيفا (قرب مدينة «Palmaraea» (48) . وبموجب صلح الرملة /1192/ م كانت حيفا ضمن المنطقة الساحلية (صور-حتى يافا) التي عهد بحكمها للفرنجة .

6 وفي هذه الفترة تأسست على جبل الكرمل رهبانية الكرمل ، او طريقة الكرمليين اذ بعد استرداد المسلمين لبيت المقدس كثر النساك والرهبان حول الجبل . وطلبوا في /1212/ من بطريرك عكا أن يرسم لهم قانونا لرهبانيتهم فتأسست رهبانية الكرمل وكثر اتباعها وانتشروا في انحاء اوروبا (49) .

وفي عام 1251/1250 اهتم لويس التاسع بتحصين قلعة حيفا وقيسارية حتى هاجمها الظاهر بيبرس في 663 ه / 1265 م وفر الفرنج الى المراكب وتركوا قلعتها وعادوا ومعهم الاسرى (والروس) (50) .

ويبدوا ان الفرنجة قد عادوا لحيفا فاستردها الملك الاشرف خليل ابن الملك المنصور، قلاوون مع عكا وصور وصيدا في عام /1291/ ، وأنهى بذلك الوجود الفرنجي في فلسطين ، واوقع بحيفا الخراب كغيرها

---

(45) ابو عبد الله محمد بن محمد الادريسي الحسني ، نزهة المشتاق في اختراق الافاق . مجلد 4 روما /1974/ ، ص 365

(46) ذكر ياقوت خطأ ان تاريخ استرجاع حيفا كان 573 ه وكذلك ذكرت دائرة المعارف الاسلامية خطأ ان صلاح الدين قد استعادها /1177/ م

(47) تحقيق وشرح محمد محمود صبح القاهرة /1965/ ، ص 94

(48) Dowling, op. cit,, p. 188.

(49) Dunning, op. cit,. p. 159.

وبعد استرجاع عكا /1291/ اضطر الكرمليون لترك المدينة .

(50) اشار الى الدمار الذي لحق بحيفا في عهد السلطان الظاهر بيبرس تقي الدين احمد بن علي المقريزي (ت 584 ه /1450) في كتابه « السلوك لمعرفة دول الملوك » م 1 ، ق 2

تحقيق محمد مصطفى زيادة ، القاهرة 1936 ، ص 527 ـ 528 اما أبو الفداء (ت 774 ه /1372 م) فلا يشير الى الحادث الا بأن الظاهر بيبرس فتح قيسارية وتسلم قلعتها ، فهدمها وانتقل الى غيرها .

من المدن الساحلية حتى لا يستفيد منها العدو . ويؤكد هذه الصورة من الخراب القلقشندي في وصفه لحيفا بقوله « وهي خراب على الساحل » (51) .

هـ ـ حيفا في العهد العثماني وحتى منتصف القرن التاسع عشر (52) .

انتقلت حيفا الى الحكم العثماني مع بقية بلاد الشام في عهد سليم الاول /1516/ وكانت قرية صغيرة تتبع سنجق (لواء) اللجون الذي هو بالتالي احد الوية ولاية دمشق الشام ، واشار اليها البحارة العثماني بيري محي الدين ريس في مؤلفة « كتاب بحرية » (الذي قدم سنة 932 ه / 1525 م) الى سليمان القانوني بأن قلعتها مدمرة لكن ميناءها يصلح للرسو .

وقد شهدت حيفا منذ النصف الثاني من القرن السادس عشر كسائر الساحل الشامي عملية اعادة الاعمار ، الا ان اعمار حيفا كان بطيئا اذ لم تعمد اسرة آل طراباي (الاسرة الحارثية 885 ه / 885 ه / 1277 م) والتي كانت بلدة حيفا ضمن اقطاعها ، الى اتباع نفس خطوات التطور السريع التي اقدم عليها معاصرهم فخر الدين المعنى في موانيء بيروت وصيدا وعكا . وقد لحق حيفا ضرر بالغ نتيجة للصراع الذي نشب بين الامير فخر الدين المعني والامير احمد الحارثي للسيطرة على شمال فلسطين ، حتى حصل الاتفاق بينهما 1033 ه ـ 1624 م على ان الامير فخر الدين بن معن يرفع سكمانيته من برج حيفا وان احمد بن طراباي يمنع عربانه من التخريب في بلاد صفد وتصيير المصافاة بينهما على بعد ففعل كل منهما ذلك غير ان الامير احمد بن طراباي ارسل من هدم برج حيفا المذكور بعد خروج السكمانية منه ومشت الدروب بين بلاد حارثة وبلاد صفد وما عاد احد يتعرض الى احد » (53) .

وظلت حيفا جزءا من سنجق اللجون التابع لولاية دمشق رغم احداث ولاية صيدا في القرن السابع عشر ، مع العلم ان مساحات كبيرة من الاراضي المحيطة بحيفا بما في ذلك خليجها الشامي ، قد ضمت الى اراضي الولاية الجديدة . ويبدو ان بعدها عن السلطة في دمشق قد جعل منها مركزا للتجارة المهربة حتى اصبح يطلق عليها اسم « مالطة الصغرى » (54) ، فاخذت السفن تقصدها متجاوزة عكا وصيدا وعلى الاغلب للتهرب من دفع الضرائب المستحقة ، او لشراء مواد لم تكن الدولة تسمح بالمتاجرة بها . وقررت الدولة العثمانية منذ /1716/ بناء عدد من الابراج حول ميناء حيفا لوضع حد للتهريب ولهجمات القراصنة من منطقة شرقي المتوسط .

---

(51) شهاب الدين احمد القلقشندي (ت 821 ه / 1418 م) في كتابه صبح الاعشى في صناعة الانشاء ، 14 م ، المطبعة الاميرية ، دار الكتب المصرية /1913 ـ 1919/ ، م 4 ، ص 155

(52) حول تاريخ مدينة حيفا منذ مطلع العهد العثماني وحتى منتصف القرن الثامن عشر يمكن مراجعة البحث المقدم من د . عدنان البخيت الى المؤتمر الثاني لتاريخ بلاد الشام . دمشق /1977/ بعنوان « من تاريخ حيفا العثماني ، دراسة في احوال عمران الساحل الشامي » .

(53) احمد الخالدي الصفدي (ت 1034 - /1724 م) تاريخ الامير فخر الدين المعني الثاني ، تحقيق اسد رستم وفؤاد افرام البستاني ، بيروت طبعة ثانية /1969/ . ص (197 ـ 198) .

(54) د. عدنان البخيت ، المقال السابق .

وقد تولى عثمان باشا ابو طوق والي صيدا الاشراف على التنفيذ فعمر البرج على الجهة الشرقية /1723/ والبرج الآخر على الجهة الغربية من الميناء /1725/ ، واقام في كل منهما ستة وثمانين من جنود المدفعية وثلاثين من الجبجية (الجنود الذين يلبسون الدروع) . وفي عام /1725/ ضمت حيفا والطنطورة الى ولاية صيدا و منذ ذلك الحين سارت حركة العمران فيها بشكل مماثل لتجارب اخرى في السواحل الشامية من اجل توفير الامن والحماية فازدهرت تجاريا وعمرانيا بعد ان كانت مهجورة منذ اخراج الصبليبين منها /1291/ (55) .

وقد سارت حركة العمران في حيفا بشكل متسارع منذ منتصف القرن الثامن عشر تقدم الشيخ ظاهر العمر من بلاد الجليل نحو عكا فملكها وحصنها (56) واستولى على حيفا ، ولما وجد المدينة القديمة لا تفي بمرامه ، عمد عام 1761 الى هدمها ، يقول مؤرخ حياته « وخربها ، وبنى قريبا منها بربع ساعة على آخر حدوده بلدا دعاها حينئذ العمارة الجديدة (57) ، حتى غلب عليها بعد ذلك اسم حيفا الجديدة » . ويضيف المؤرخ أن ظاهرا كان يقول « انه فعل ذلك خوفا من القرصان الكفار» المرادبهم فرسان مالطة الذين كانوا يحمون تجارة اوروبا في البحر . هذا الموقع الجديد الذي بني عام 1761 كان عند نهاية الخليج 15 ـ 20 دقيقة الى الجنوب الشرقي من المدينة السابقة ، (بحيث اصبحت اكثر قربا من عكا) .

واكمل تحصين حيفا فبنى سورا حول المدينة له بوابتان وبرجا على نتوء صخرى يشرف على المدينة من الناحية الجنوبية . وشيد ابناء الشيخ ظاهر الجامع والسراي في المدينة واضطر اهل « حيفا العتيقة » الى ان ينتقلوا الى المدينة الجديدة داخل الاسوار ، واتخذوا لبنائها حجارة البلدة السابقة .

وبيتدئ منذ ذلك تاريخ حيفا الجديدة (58) .

وعند اقتراب الحملة الفرنسية جلا احمد الجزار عن المدينة بعدان اخلاها من المدافع والذخائر . وفي 16 آذار 1799 تقدم كلبير نحو المدينة ووضع حامية في القلعة . وقام نابليون بقيادته على جبل الكرمل ، كما اتخذ دير الكرمليين (59) على قمة الجبل مستشفى لجرحاه والمصابين بالطاعون اثناء حصار عكا .

ورست في ميناء حيفا بعض قطع الاسطول البريطاني بقيادة سدني سميث الذي كان يرقب عملية حصار نابليون لمدينة عكا (60) . وكان على الجيش الفرنسي ان يقيم جسور ميدان ليعبر نهرى المقطع

---

(55) المصدر نفسه .

(56) (ميخائيل نقولا الصباغ العكاوي ، تاريخ الشيخ ظاهر العمر الزيدني حاكم عكا وبلاد صفد ، تحقيق الخوري ، قسطنطين الباشا المخلصي حريصا /1935/ ، ص (45) .

(57) Shumacher, P. E. F. 1888, Op, cit, p. 139.

يقول شوماخر ان بعض شيوخ الفلاحين لا يزالون يسكنون حيفا بالعمارة وهذا الاسم برأيه اكثر تطابقا مع اسم (بالميرا) الصليبية . الذي يرى انها اساس بناء حيفا الجديدة .

(58) الكرملي

(59) كانت مجموعة الكرمليين قد عادت /1767/ واقامت ديرا على قمة جبل الكرمل على علو /558/ م وعلى مسيرة 3 كم من حيفا .

(60) P. E. F. 1917, pp. 25—26.

والنعامين ، وهو في طريقه من حيفا الى عكا . ووصل الجيش الفرنسي المتقهقر من عكا الى حيفا بحالة سيئة وامر نابليون بدفن مدافع الحصار او القائها في البحر ، كما احرق العربات (61) ، وكذلك امر باحراق الدير الكرملي (62) .

وفي عام 1227 ه /1831 م ظهرت قوات ابراهيم باشا عند ساحل حيفا ، واستولى على المدينة فجاة ، وفي حيفا عقد مجلس حربجي في 29 تشرين ثاني واتخذت القرارات لحصار عكا (63) . وخلال حكم ابراهيم باشا في سورية زار الشاعر الفرنسي الفوس دي لا مارتين في 20 تشرين اول 1832 مدينة حيفا (وهو يسميها Kaipha) وتغنى بروعة خليجها وسهلها وجبلها ومناظرها الخلابة (64) .

وكانت فلسطين قد شهدت خلال فترة حكم ابراهيم باشا تزايد اهتمام الدول الاوربية ، فتدفقت اليها الارساليات الاجنبية ، وبدأ التعرف على احوالها الجغرافية وطبوغرافيتها ، وجمع المعلومات عن اماكنها المقدسة وآثرها ، وكان الاهتمام الديني والعلمي جانبا فقط من التطلعات السياسية والتجارية لهذه الدول (65) .

وكان من بين الذين قدموا الى فلسطين 1737 قس امريكي هو ادوارد روبنسون (كان مهتما بالطبوغرافية التوراتية) ، وخلال رحلاته في فلسطين وصف مدينة حيفا بانها ذات تجارة هامة على سفح الكرمل . وانها قد تكون المدينة القديمة « Sycaminum » . ووصف خصب وغنى سلسة الكرمل الممتدة من البحر نحو الجنوب الشرقي (66) .

وخلال هذه الفترة ايضا بدات زراعة القطن في سهل عكا الكبير شمال حيفا (بين نهري المقطع والنعامين) (67) . وقد اصاب حيفا كثير من الخراب نتيجة لقصف مدفعية الاسطولين البريطاني والنمسوي لقوات ابراهيم باشا /1840/ (68) . وعادت حيفا الى السلطة العثمانية بعد معاهدة لندن وانسحاب محمد علي من سوريا .

---

(61) Ibid. P. 31

(62) جدد بناء الدير الكرملي عام /1867/ .

(63) حول الحكم المصري لبلاد الشام يمكن مراجعة :

اسد رستم ، الاصول العربية لتاريخ سورية في عهد محمد علي باشا ، /5/ اجزاء ، بيروت /1930 ـ 1934/ .

(64) كتاب لامارتين « ذكريات وانطباعات وافكار ورؤى خلال رحلة المشرق /1832 ـ 1833/ » او مذكرات مسافر المطبوع في باريس /1835/ في /4/ مجلدات (بالفرنسية) ووردت المقتطفات في . كتاب » فلسطين : بطاقات بريدية من مجموعة عزالدين القلق ، القاهرة (المركز الجرافيكي العربي) .

65) خيرية قاسمية : صندوق استكشاف فلسطين ، البحث المشار اليه سابقا .

(66) Robinson, E., Biblical reseraches in Palestine, and The adjacent regions, London, 2nd edition 1860, 336-340.

(67) استمرت زراعة القطن مدة اربعين عاما ثم توقفت لانها اصبحت عملية غير مربحة مع تطور مزارع القطن في الولايات المتحدة ونقص الادوات الحديثة واساليب الزراعة الجديدة .

(68) Dowling, Op, cit, pp. 189-190
Ibid, p. 189

و ـ تطور مدينة حيفا اواخر الحكم العثماني : » منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر حتى نهاية الحرب الاولى » :

اخذت حيفا منذ منتصف القرن التاسع عشر تنمو سريعا ، وبدات السفن تقصد مرفأها الصغير على حساب مرفأ عكا نظرا لملاءمة موقعه بالنسبة للاراضي الداخلية الخصبة (مرج ابن عامر واراضي حوران) وبسهولة الوصول اليه عبر الطرقات المتجهة نحو الساحل (69) . وقد اتاح تدفق الاموال لسكان حيفا بناء بيوت ذات دورين ، وفي عام /1808/ تم بناء اول الدور الخاصة خارج السور الى جبل الكرمل (70) .

وقصد حيفا كثير من الاجانب للاستيطان والتجارة والرحلات والكشف العلمي والنشاط الارسالي . ومن ابرز هؤلاء الاجانب مجموعة من الالمان لم يتجاوز عدد افرادها 250) نزلوا ارض حيفا في عام /1869/ ، واستقروا في حي خاص بهم في شمال غربي المدينة يشرف عليه جبل الكرمل (71) . وكان المستوطنون الالمان اصحاب نشاط وعمل ، وعملوا بمختلف المهن « زراعة وصناعة وتجارة » وتميز حيهم بالشوارع الواسعة والبيوت الحجرية المتناسقة المبينة على الطراز الاوروبي .

وتحيط بها حدائق صغيرة (72) . (بلغ عددها 31 بيتا بالاضافة الى الحظائر والمخازن) . وبلغ مجموع الاراضي التي تملكوها (450) هكتار من اخصب الاراضي على منحدرات الكرمل (زيتون وكرمه) . وقد تعاملوا مع المواطنين على مستوى محدود في مجال العمل والتعليم (73) الا انهم بوجه عام عاشوا في عزلة (74) ، وحدث بينهم وبين المواطنين بعض الخلافات حول تحديد اراضيهم ، كما اساؤوا في بعض الاحيان الى طبيعة جبل الكرمل باستخدامهم أشجاره للوقود او البناء (75) .

وقصد الحي الالماني معظم الاجانب ، من رحالة وعلماء وتجار ، ممن مروا بحيفا وكان من بينهم اولئك العاملون في صندوق استكشاف فلسطين (76) . واصبحت حيفا محطة هامة خلال عملية « مسح

---

(69) Conder, The Present Condition of Palestine. P.E.F. 1897, p. 12.

(70) Landau, J.M. Abdul-Hamids Palestine, London 1979. pp. 103-105.

(71) زعيم الحركة هو كريستوفر هوفمان اسس جمعية الهيكليين في المانيا بزعم انهم يريدون تشييد هيكل اورشليم واصبح من اهدافها الاستيطان في فلسطين وقد فشلت محاولتهم الاولى للاستيطان عند برك سليمان (القدس) ثم قرب الناصرة على طرف سهل مرج بن عامر . حتى تم انشاء مستوطنتهم الأولى في حيفا وتبعتها بعد اشهر مستوطنة يافا ثم تأسست مستوطنات المانية أخرى قرب القدس ويافا والناصرة وبلغ عددها عام /1922/ سبعا تضم /1700/ نسمة . ومع ان القصد من تأسيس المستوطنات كان دينيا محضا الا انها تخفي محاولة المانية لايجاد موطىء قدم في الأراضي المقدسة .

(72) Loc. cit.

(73) Loc. cit.

(74) Cowper, A month in Palestine. London, 1889, p. 113.

(75) P.E.F. 1882, Temple Colony in Haifa, p. 3.

(76) انظر البحث المشار اليه سابقا حول نشاطات صندوق استكشاف فلسطين

فلسطين » التي تولى صندوق استكشاف فلسطين (77) القيام بها بين (1871 ـ 1877 والتي نفذها عدد من ضباط سلاح الهندسة الملكية البريطانية برئاسة كلود كوندر ومساعدة كتششنر . وشغلت حيفا حيزا كبيرا من تفكير كوندر (الذي كان يخطط في تقاريره ومحاضراته لمستقبل فلسطين وللدور الذي يمكن ان يقوم به الاستيطان اليهودي في تلك المنطقة) . وكان من جملة الاقتراحات التي تقدم بها عام /1879 بناء رصيف لصد الامواج حتى تتحول المدينة الى ميناء له قيمة ، واقترح ان تصبح حيفا نقطة انطلاق لخطوط حديدية متجهة نحو وادي الفرات ونحو القدس نظرا لسهولة انشاء تلك الخطوط ولأهمية الميناء ، ولخصب الاراضي المجاورة ، وهي عوامل تجعل من المنطقة المجاورة لحيفا ، بنظره ، نقطة البداية المواتية للاستيطان اليهودي المقبل (78) .

وفي مدينة حيفا كان يقيم المهندس الالماني شواماخر (وكان من المساهمين في نشاطات صندوق الاستكشاف) وهو الذي تولى وضع خريطة الحي الالماني ، كما نزل في دار شوماخر /1877/ الليفيتنانت كتشنر (وكان مكلفا من قبل الصندوق بالمشاركة بعملية مسح الجليل) ، وأقام كتشنر مزولة في باحة المنزل استعان بها سكان الحي الالماني للتوقيت .

ومن الذين اقاموا في حيفا لورنس اوليفانت (الصحفي البريطاني وعضو البرلمان الذي قام برحلات الى الشرق في السبعينات ووضع مشروعا لدعوة اليهود في اوروبا للاستيطان في ارض جلعاد ، وهي دعوة بناها على عوامل دينية عاطفية ولكنها تخفي دوافع سياسية واستراتيجية لخدمة المصالح البريطانية . وكان اوليفنت من المساهمين في بحوث وتقارير صندوق الاستكشاف (79) . وملك منزلين احدهما في الحي الالماني والثاني عند قمة الكرمل (80) . وقد مات في حيفا /1886/ ودفن في مقبرة الحي الالماني (81) .

وفي الثلث الاخير من القرن التاسع عشر بدت مدينة حيفا وقد اخذت مظهرا جميلا حديثا هو مزيج من طابع محلي وعالمي ، وظل ذلك هو سمة المدينة العامة في الفترة الاخيرة من العهد العثماني (82) . ورصفت شوارعها كما اقيمت البنايات الجديدة خارج السور بجهة طريق عكا والناصرة والى شواطىء البحر حيث البساتين والنخيل (83) . ومنذ عام /1887/ اصبحت مركز القضاء يحمل اسمها من اعمال لواء عكا ، وهو يتبع ولاية بيروت . وزاد ارتباط المدينة بالمناطق المجاورة : ففي /1886/ دشنت

---

(77) المصدر نفسه .

(78) Conder, The Survey of Palestine, 1873, p. 44.

كما نشرت لكوندر مجموعة مقالات في جريدة الجويش كرونكل حول مستقبل فلسطين .

(79) Oliphant, L., The Land of Gilead, Edinburgh, 1880.

(80) Cowper, Op. cit, p. 113.

(81) الف اوليفانت كتابا بعنوان : Haifa, or life in modern Palestine.

طبع في لندن بعد وفاته بعام /1887/ .

(82) Landua, Op. cit

(83) الدباغ ، ص /492/

السلطات العثمانية اول طريق عربات من حيفا الى طبرية ونحو جنين ، كما جرى الاحتفال /1892/ بافتتاح العمل بسكة حديد حيفا دمشق ، فرع من الخط الحجازي (84) ، وتم انشاء طريق العربات بين حيفا ويافا عام /1898/ .

وخلال خريف 1898 بدات السلطات العثمانية استعداداتها لزيارة الامبراطور الالماني وليم الثاني والامبراطورة لحيفا في طريقهما للقدس . وقد بني رصيف لرسو يخت الامبراطور على شاطىء البحر قرب الحي الالماني على مسافة نصف ميل غربي المدينة . وقد وصل اليخت الامبراطوري (هوهنزلين) الى ثغر حيفا قادما من استامبول تحرسه دارعتان المانيتان . واستقبل الضيفين والي سورية (ناظم باشا) ووالي بيروت (رشيدبك) وزارا مقام النبي ايليا في جبل الكرمل والحي الالماني (85) .

وقد ارتفع شأن مدينة حيفا منذ مطلع القرن العشرين فاصبحت في مصاف مدن الدرجة الثانية في سوريا بعد بيروت ويافا بعد أن كانت تعد منذ 30 سنة من القرى رغم ما كان ينقصها من اثار العمران كمد الترمواي والتنوير والماء والرصيف والمرفأ (86) . وعمرت تجارتها ومعظمها بالحبوب ، وزخرت بعشرات نواب القناصل ووكلاء القناصل للدول الاجنبية وكثرت فيها الفنادق والمعابد لجميع الطوائف (87) . وزاد عدد مدارسها وبالاضافة الى ثلاث مدارس حكومية كان فيها ثماني مدارس اجنبية عام 1903 الى جانب مدرسة لليهود واخرى للروم الارثوذكس (88) .

وقد زادت تجارتها حركة ، وسوقها رواجا منذ ان تم افتتاح خط حديد دمشق حيفا ، فاتصلت بسكة الحجاز من جهة وبدمشق وحمص من جهة اخرى (89) فاصبحت ميناء تصدير حبوب هذه الاقاليم ومدخل كل ما يلزمها من اوروبا وامريكا بدل بيروت . وقد اجريت تحسينات كبيرة في الميناء المتفوق طبيعيا ، واقيمت منارة قرب الدير الكرملي (90) . وفي عام /1913/ تم افتتاح الخط الحديدي من حيفا الى عكا ، كما بدأ الاعداد لتمديد فرع آخر لسكة حديد الحجاز من حيفا نحو القدس عبر العفولة وجنين ونابلس . (91) .

---

(84) انتهى العمل به /1905/ Dowling, Op. cit, p. 191.

(85) وصف الرحلة ابراهيم الاسود صاحب مطبعة جريدة لبنان في كتابة الرحلة الامبراطورية في الممالك العثمانية . طبع في بعبدا /1898/

(86) رفيق التميمي ، محمد بهجت بك ، ولاية بيروت ، القسم الجنوبي 1335 ـ 1916 ، مطبعة الاقبال ، بيروت ، اعيد طبعة /1979/ في بيروت (ص 226 ـ 230) .

(87) المصدر نفسه ، 233 ـ 234

(88) الدباغ ، ص 500 نقلا عن الكتاب السنوي لوزارة المعارف العمومية 1321 هـ ـ 1903

(89) Dunning, Op. cit, p. 160.

(90) Ibid, p. 159.

ويعجب الرحالة لوجود المنارة لان الفكرة السائدة كما يقول ان الحكومة التركية غير متحضرة ولا يمكنها ان تشيد مثل هذه المنارة .

(91) Dowling, Op. cit, p. 191.

وحدث نمو حيفا واتساع عمرانها وتجارتها على حساب عكا (92) ، رغم ان عكا ظلت مركز المتصرفية مادة ولم ينجح اهل حيفا بنقله الى مدينتهم (93) .

وارتفع عدد سكان مدينة حيفا من /3000/ نسمة في منتصف القرن التاسع عشر الى ما يقارب /10،000/ نسمة عند مطلع القرن العشرين (94) .

وقد اضيف الى سكانها المحليين مزيج مختلط من الاوربيين كان من بينهم اليهود الاشكنازيم ، وقد ازدادت اعداد الاخيرين بدافع الهجرة الصهيونية بعد /1908/ وكانوا يقطنون القسم الغربي من المدينة ويشتغلون بالتجارة وسهل لهم بنك انجلو فلسطين امتلاك الاراضي كما عمدوا الى نشر اللغة العبرية وفتح المدارس ، ولم يكن غريبا ان تنشط ردود الفعل العربية للحركة الصهيونية في حيفا ، وتولت الصحافة المحلية (واهمها جريدة الكرمل) تنبيه الرأي العام الى خطورة الحركة ووجهت العمل لاسلوب المقاومة (95) .

خاتمة :

لقد كانت جميع الظواهر تشير عند نشوب الحرب العالمية الاولى الى ان حيفا ستصبح خلال السنوات المقبلة الميناء الاكبر لفلسطين والعاصمة التجارية بها ، ونظرا لاهمية موقعها ولكونها عقدة مواصلات حيوية ، احتلت مكانا هاما في الخطط البريطانية الصهيونية المشتركة المقبلة في فلسطين .

---

(92) الدباغ ، ص 494 نقلا عن : Baedeker, K. Palestnine SYRIA, Leibzing, 1912

يورد مايلي : كانت واردات الجمرك في عكا قبل افتتاح الخط الحديدي بين دمشق وحيفا 4 ـ 5 ملايين غرشا ، وواردات الجمرك في حيفا /600000/ غرشا وبعد افتتاح الخط زادت الجمرك على (5) ملايين غرشا في حيفا وهبطت واردات عكا الى (000 747) غرشا عام 1907 و 000 100 غرشا عام /1963/ .

كما قدرت واردات حيفا عام 1911 ب (000 200) ليرة وصادراتها (000 200) ليرة .

(93) رفيق التميمي ، محمد بهجت ، ولاية بيروت ، ص 133 ـ 134 ص 280

(94) المصدر نفسه ص 231 ـ 232

يقدر الكتاب عدد سكان حيفا طبقا لاحصاء 1916 كما يلي :

4500 مسلم و 314 يهودي و 297 كاثوليكي ، و 249 لا تيني و 186 ماروني و 868 روم ارثودكس و 54 بروتستنتا 286 . والاغراب غير المسلمين 620 . ويشك الكتاب بصحة عدد اليهود 314 ، ويقدر الرقم بـ 1000 اشكنازيم وسفارديم .

(95) حول هذا الموضوع : خيرية قاسمية ، النشاط الصهيوني في الشرق العربي وصداه ، بيروت /1973/ .